رحلتان

رحلة الى القاهرة — انطاكية وآثارها الفخمة

للامير مصطفى الشهابي — للدكتور شكري

— ١ —

رحلة الى القاهرة[1]

اذا ركبت قطار السكة الحجازية في محطة القنوات بدمشق فانطلق بك صاخباً ينساب بين حدائق الغوطة الغناء تحت باسقات الأدواح وبين قصيرات الجنبات وطويلات الانجم وخلال مخضرات البقول على انواعها سيراً مع فني بردى وسواقيه التي لا تحصى ، وقد آذنت تباشير الربيع بتفتق البراعم والعيون عن افانين الزهر ومخضلّ الورق، وبدت عن يمينك بلاس وداريا وغيرها من القرى فذكرتك بقول الصنوبري :

ونعم الدار داريا ففيها — صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباء — اعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها — فلست اريد غير دمشق دنيا

ثم طلع بك الجبل المانع وهو يلهث تعباً فاستقبلتك اللجاة بحرّتها السوداء فطواها على عجل الى حوران حيث تذكر قول جرير في صفاتها

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم — عند الصفاة التي شرقيّ حورانا
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً — عيشاً بها طال ما احلولى وما لانا

حتى اذا بلغ بك وادي اليرموك فانحدر اليه قلقاً حذراً يتئد في سيره وانت تذكر روعة التاريخ في وقعة ذلك الوادي الشهير وتمتع ناظريك بأزهاره الفتانة التي تنبتها الطبيعة على انواع وأصناف لا تعد ، ثم استقبلك نهر الاردن وبدت امامك بحيرة طبريا فقف هنالك واذكر دمشق وقل مع اليزيدي :

(١) من محاضرة القاها الامير الشهابي في روضة المجمع العلمي العربي بدمشق على اثر زيارته القاهرة في السنة الماضية

ماذا بقلبي من ذوام الخفق اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الاردن او دمشق لأن من اهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست ابغي ما حييت عتقي

وتبدو لك بعد قليل بيوتُ بيسان وأشجارها وهي تنظر من على غور الاردن كأنها تدفع عنهُ صروف الدهر . ومن العجيب انك لا تشاهد حولها كرماً مع ان غورها كانت مضرب الامثال فيما مضى . ولا ازال اذكر البيت الذي قاله عبد الرحمن بن سيحان بن ارطاة في سبيئة بيسان اي خمرها وهو :

سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء او سبيت من ارض بيسان

وليس في مرج بن عامر ما يلفت نظرك سوى كثرة الصهيونيين فيهِ وفي السهول التي تقطعها في اليوم الثاني الواقعة جنوبي حيفا إلا طولَ كرم وقنقيلة ورملة ولدّ فانها حسّت نفسها منهم ولا يزال يصح فيها قول كثيّر :

خموا منزل الأملاك من مرج راهط ورملة لُدّ ان تباح سهولها

وكأني بك ذاكر وقد بلغ بك القطار غزة قول الامام الشافعي فيها :

واني مشتاق الى ارض غـزة وان خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله ارضاً لو ظفرت بتربها كحلت بهِ من شدة الشوق اجفاني

ثم يضرب القطار بمن فيهِ صحراء التيه دون ان يتيه لأن الكلأ امامهُ ممدودة تتلوى كالارقط وهو كما قال الحافظ حديد ينساب فوق حديد فلا خوف في دخوله التيه ان يضل كما ضل قوم موسى او يجازف مجازفة المتنبيء في قوله :

ضربتُ بها التيه ضرب القمـار إما لهذا وإما لذا

وإذا ما جزت قناة السويس في القنطرة وركبت قطار مصر فانطلق بك في دساكر القطر ومستغلاته فلا تطمع بأن تمتع نظرك في الليل البهيم إلا بمصابيح البلدان والمدن التي يمرُّ بها القطار حيثاً او يقف بها هنيهة وقفة القليق الذي لم يبلغ الغاية في سيره حتى اذا بدت لك مصابيح القاهرة المشرقة حق عليك ان تحيي مصر بصرخة شبيهة بالتي خرجت من فؤاد شاعرنا الياس فياض:

سلام على مصر ولو عشت ادهراً لما كنت الا طول عمري مسلما
على موطن لو خيّر المرء موطناً من الارض لم يختر ابرّ واكرما
سرت في اهاليهِ عـذوبة نيله وسال فما إن تعرف الماء منهما

ولا تعجبن بعد خروجك من المحطة ليلاً لوفرة الانوار المتألقة في ساحتها وفي شارع الملكة فازل الطويل البديع ولا لروعة تمثال نهضة مصر الذي يجب ان تحييه تحية من يعشق الحرية اينما كانت فكيف في عاصمة الفاطميين والايوبيين ولا لازدحام السيارات والعجلات

وخامة الابنية وكثرة المارة ونظافة ارض الشوارع المعقولة صقلاً فأنت في مدينة اوربية في عظمتها شرقية في روعتها وهذا المزيج هو ما يستخفك ويستهويك فلست في الاسكندرية ولا في بور سعيد حيث وظائف الاجانب بمختلف الالسن الاغنية تحملك تسى ان تسمع اذنك الى حين وحيث يظهر هؤلاء امامك بمظاهر تود منها لو كان لك عينا المصري ريثما تتسلل من بينهما بسرعة الكهرباء

إنك اينما سرت في القاهرة تجد شوارع نظيفة واسعة وأبنية كبيرة شاهقة وحدائق مزدانة بأجمل اشجار البلاد الحارة وتجد ايضاً جوامع قديمة وحديثة وقصوراً مبنية على الطراز العربي تأخذ نقوشها وزخارفها وتطاريزها بعجائب القلوب. فحدائق الازبكية والبانات والقناطر الخيرية والحيوانات والاسماك والمعادي وغيرها وهي كثيرة ثم جوامع السلطان حسن والرفاعي وابن طولون وسيدنا الحسين والازهر ومحمد علي وعشرات غيرها من آيات الفن المنبثة في انحاء المدينة كلها تحملك على الاعتقاد بأن القاهرة هي اروع مدينة لا في الشرق العربي وحده بل في الشرق الادنى بلا جدال . وأجمل من المدينة سكانها فانك لا ترتطم فيها بعدد كبير من حلفاء الاجانب بل الجمهور الذي تقع عليه عينك احد اثنين مصري اسمر بشوش مرح محتفظ بطربوشه القصير او مصرية سمراء كحلاء هيفاء في الغالب لفاء الا في الاقل تختال في الحرير الاسود سافرة الوجه او مسدلة عليه نقاباً ارق من دين صاحب البيت الآتي في الخمرة وأخاله أبا نواس :

عتقت في الدن حولاً فهي في رقة ديني

نعم لقد رقت النقب على وجه السيدات المصريات حتى طار نصفها لدى نصفهن وأوشك النصف الثاني ان يلحق بأخيه وصرت ترى السيدة المصرية تجلس بجوانب الرجل في مجالس الادب وابهاء المحاضرات والحدائق والمسارح وغيرها دون ان يُعَدّ ذلك منها خروجاً على المألوف من العادات. وتدولت المدنية الاوربية هذه الحال تدريجيًا . فالمرأة المصرية اسلمت فيها طائفة من المرأة التركية التي حملوها قسراً على اخبث ما في السفور من امور مستقبحة . ومن المعروف ان القرويات في مصر كالقرويات في الشام لا يتخذن النقاب على اوجههن. وأنت اذا اردت شبهاً لصور المصريات في المتاحف وعلى الستائر بقدودهن الهيف وعيونهن السود التي يشبهونها بفلقة اللوزة وما اوجدته الطبيعة في الاهداب من كثافة وكحل وفي الحواجب من استقامة وقصر الى غير ذلك من الصفات التي تسترعي نظرك في صور المرأة المصرية القديمة فانك واجد هذا الشبه في فتيات القرى المصرية لا في فتيات المدن

ومتى رحت تبحث في القاهرة عن كل ما يجب عليك ان تراه وتدرس بامعان كل ما يحتاج الى درس حق عليك ان تسلخ فيها اشهراً بل سنوات . ولو جشمت نفسك التأليف في ذلك لما

خرجت بمشربية بأسفار . وبعد ماذا ترائي محدثتك عما شاهدتهُ فيها خلال ايام معدودات أذكر دار الآثار المصرية وفيها تتجلى عظمة المصريين الاقدمين فيما خلفوه من هيا كل وتماثيل وتُرب مصنوعة من الحجر الصلد وأثاث ورياش وحلي مذهبة قرأتم عنها فيما كتب عن توت عنخ آمون خاصة الى غير ذلك مما يجعل تلك الدار لا تقل في عظمتها وغناها عما شاهدتاه في اكبر المتاحف الاوربية . ام أذكر دار الآثار العربية وهي ان لم تستثر دهشتك من حيث عظمةُ ما فيها من مخلفات الاجداد فتنتك بما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخرف واعادت الى نفسك ذكرى روعة الممالك العربية في إبانها . أم أتحدث عن اهرام الجيزة وسقارة وابوصير وغيرها او اكتفي بهرم خوفو الاكبر في الجيزة وهو من اقدم ما بنتهُ يد الانسان وما اصلهُ على ٢٣٣ متراً من الارض وعلا جرمهُ فوقها حتى بلغ ١٤٧ متراً . وهنالك يربض ابو الهول الجبّار الذي هزأ بالدهر كالهرم وصارع احداثه مثله حتى ناجاه امير الشعراء بقوله :

ابا الهول طال عليك العصُر وبلغت في الارض اقصى العُمُر
فيا لذة الدهر لا الدهر شبَّ ولا انت جاوزت حد الصغر

ومتى ذكر ابو الهول وجب ان يتصور الانسان اسداً رابضاً من حجر طوله ٥٧ متراً وعلوه ٢٠ متراً وله رأس آدمي تبلغ اذنهُ ١٫٣٧ متر ويبلغ فمه ٢٫٣٢ ولو وقف رجل على فرع اذنهِ ومد يده لما بلغت قمة رأسهِ . ام انتقل بك طفراً الى مصر الجديدة حيث ترى الآيات البينات في بناء المدن الحديثة من قصور شاهقة وشوارع نظيفة واسعة وحدائق هي بهجة الناظرين . ولو شاهدت اجمل الاحياء في المدن الأوربية لما تركت في نفسك اثراً يفوق الاثر الذي تطبعهُ فيها رؤية مصر الجديدة . ام اسير بك الى حي الزيتون والمطرية وواحة عين شمس فتتذكر هنالك قول امير الشعراء في قصيدته « المطرية تتكلم » :

لولا حلى زيتوني النضر ما اقسم بالزيتون ربّ العباد
الواحة الزهراء ذات الغنى تربي التي ما مثلها في البلاد
تربك بالصبح وجنح الدجى بدور حسن وشموس اتقاد

وبين الزيتون وواحة عين شمس ترى بيت الامام محمد عبده رحمهُ الله وقد اوشك يتداعى فتنقبض لذلك نفسك وتودُّ لو ان الحكومة المصرية على غناها رممته وجعلتهُ بيتاً من بيوت الأمة يحج اليهِ ابناء الشرق العربي كافة . وكنت ادليت بهذا الرأي الى معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاستصوبهُ

ام نصعد الى القلعة التي كان قد امر ببنائها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب على احد منحدرات المقطم فنحظى بمنظر لا تقع العين على اجمل منهُ لبيوت القاهرة الجميلة وجوامعها البارزة ومآذنها الشاهقة وقبابها الكروية وجنانها الفردوسية ونيلها الهادي تنساب مياهه

بجلال وعظمة . وهنالك تدخل قصر محمد علي الكبير فتتذكر ايامه الغر وايقاعه بظلام المماليك واستئصاله شأفتهم ، وتدخل الجامع الذي بناه ذلك الرجل العظيم وأتمه الجديري سعيد باشا على طراز جامع نور عثمانية في فروق بقبته البيزنطية العظيمة ومآذنه الرشيقة العالية فتحيي فيه ضريح مؤسس النهضة الحديثة باحترام وخشوع . ثم تمتطي السيارة فتنطلقها شمالاً الى شبرا فالقناطر الخيرية حيث تشاهد ذلك السد العظيم الذي بدأ به محمد علي فأقامهُ في وجهِ النيل واتمه بعده خلفاؤه وحيث تقع في الجزيرة التي ولدتها الترع على حديقة غناء من اجمل حدائق العالم تتسابق فيها بالجمال اشجار الفصيلة الصنوبرية وهن ملوك دوحة النبات وأشجار الفصيلة النخلية وهن امراؤها . دع انواع السنط والجميز ومختلف الأزهار . وأعجب لارض الحديقة كيف اوجدوا فيها تلك المنعطفات والمنحدرات والتلال الصنعية وكيف زينوها بتزاريق الزهر وتعاريجه . فاذا ما اضفت الى خضرة الحديقة وزرقة النيل حمرة وجوه الحسان المرحات فأنت اذن في الجنة التي فضلها امير الشعراء على جنة الخلد عندما هتف بسينيته المشهورة في الاندلس:

وطني لو شغلت بالخلد عنهُ نازعتني اليهِ بالخلد نفسي

ام تيمم الجنوب في القطار الى حلوان بلدة عبد العزيز بن مروان فتعيد إلى الخاطر ما كان بنى الأمير فيها من دور وقصور وما زرع من بساتين وكروم ثم تزورُ حمامها الكبريتي الشهير فترى بناء عربيًّا ضخماً بنته الحكومة يحتوي على عشرات من الغرف والمقاصير النظيفة فيها مغاطس تُملأ بالمياه الكبريتية أو المياه العادية وقاذفات للبخار أو الهواء الحار . وكأني أراك امام هذه الوسائل الحديثة ذاكراً حالة حماماتنا الكبريتية في طبريا والحمَّة وضُمير والسُّخنة وتدمرَ وغيرها وهي كما أوجدتها الطبيعة لم تعمل بها يد إنسان ولم ينفق فيها دانق واحد .

أم ترانا نترك الجد إلى حين فنقلت بضع ليالٍ في عماد الدين وماعهدنا عماد الدين الكاتب الذي جعله صلاح الدين في خاصتهِ اخا لهو وطرب بن عهدناه على حد وصف الجاحظ لأمثاله « الفَ تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلفَ تبيين » ولو لم يكن كذلك لما الف « خريدة القصر وجريدة العصر » في عشر مجلداتهِ « البرق الشامي » وهو سبع مجلدات في التاريخ وديوان شعر وديوان رسائل وغيرها . فاذا صحت نسبة الشارع المذكور اليهِ — ولست أعلم عماداً للدين غيره تضع فيهِ هذه النسبة — كان من عبث الدهر وهزله أن تجتمع أنواع الملاهي في شارعهِ حتى صار يعرف بها وصارت تعرف بهِ . فهنالك تشاهد يوسف وهبي أشهر ممثل انجبتهُ مصر ومسرحهُ يعرف بالجد سواء من حيث التمثيل أم من حيث الآداب التي يشترط على المتفرجين أن يتحلوا بها . فأنت لا تجد هنالك إخلافاً بالمواعيد أو قهقهة أو مسامرة أو شرب ماء أو تدخين تسبغ في أثناء قيام الممثلين بعملهم . ومتى فرغ الممثلون من تمثيل أحد الفصول جعلوا لك بينه وبين تاليهِ وقتاً تدخل فيهِ بهواً واسعاً فتأكل وتشرب وتدخن وتُطلق لسانك

الميدان . ويكاد يكون مسرح فاطمة رشدي متحلياً بالصفات المذكورة. وهو يمتاز بصاحبته التي تحلت برشاقة القد وجمال الصورة وجودة التمثيل فكانت اشهر ممثلات مصر على الاطلاق. ولقد ابدعت في رواية مجنون ليلى تلك الرواية التي تعد من فرائد شوقي شاعر العرب الاكبر كما أبدع زميلها احمد علام . ولا شك ان التمثيل العربي لم يبلغ بعد مستوى التمثيل في دار الاوبرا الملكية حيث تمثل فرق أجنبية في الغالب وهو لا يزال بعيداً عما شاهدناه من الروايات في أوربا . ولكن القصور على ما أرى ليس في غواة التمثيل المصريين ولا في مؤلفي الروايات التمثيلية بل في ضيق ذات يدهم جميعاً فلو امدتهم الحكومة بالمال الكافي لبرهن كل منهم على انهُ أخو عبقر في عمله ولنهضوا بالتمثيل العربي إلى المستوى الذي تتوق اليهِ

وفي ذلك الشارع تسمع صوت عبد الوهاب يزينهُ تفنن صاحب الصوت بالغناء واتقانهُ قصائد شوقي المتينة الحوك والجميلة المعنى ولو أعطيت أم كلثوم صناعة عبد الوهاب ثم لو انتقت على الأقل قصائدها الغزلية من نظم فحول الشعراء المتقدمين أو المتأخرين لبلغت سيدة المنتهى ولتضاعف تأثير صوتها العذب الذي ما حاكاه صوت رجل أو امرأة في البلاد العربية على ما نعلم . ولا شك ان لحوك القصائد ومعانيها تأثيراً كبيراً في نفس المستمعين فشتان من حيث المعنى ما بين قولك

متى يا جميل المحيا أرى رضاك ويذهب عنا الغضب
واني محب كما قد عهدت ولكن حبك شيء عجب

وبين قول الثاني :

ليلى تردد في سمعي وفي خلدي كما تردد في الآيك الأغاريد
أغير ليلاي نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالي الخرد الغيد

والقصيدتان اصبحتا اشهر من نار على علم الأولى تنشدها ام كلثوم والثانية عبد الوهاب. واما من حيث الفن فلا يزال ينقصنا الشيء الكثير من التنويع والتشكيل والمفاجئات فقد مللنا من الانغام المحزنة وما فيها من نواح وعويل . ولست أقصد بذلك تقليد الفرنجة بأنغام باردة كالتي اخذ بعضها يلاحقها في هذه الايام ليست بشرقية ولا غربية وهي جديرة بثقب طبلة الأذن ثقباً وسماجة . وبعد هذا ما تراك ملاقياً في شارع عماد الدين فانك ملاق فيهِ ممثلين لروايات السينما وفرقاً للرقص والخلاعة مما يجعل عماد الدين الكاتب رحمهُ الله يتمنى لو كان سمي بأي اسم آخر أو لو أنصفهُ الذين احبوا تخليد اسمهِ فخلدوه في غير هذا الشارع

* * *

ولنعد بعد هذه الجولات الليلية الى حياة الجد في النهار ولنرد على عجل ما يتاح لنا زيارتهُ وكفى في أيامنا المعدودات . ولنبدأ بدار الكتب المصرية فهناك يلقاك مديرها العالم الاستاذ

اسعد برادة بوجهه البشوش ويعرفك ببعض مساعديه وكل منهم استاذ فاضل محنك من الكتب تقار خلال سطورها يدرك منها بالعين المجردة مالا يراه غيره بالمجهر . ولله ما حوته تلك الدار من نفائس الرقوق والمصاحف القديمة وغالي المخطوطات والكتب فانها ثروة في البلاد أي ثروة ومرحى لجهود الذين يطبعون الكتب في مطبعة تلك الدار فيخرجونها في تلك الحلل القشيبة التي أكتسى بها كتاب الأغاني وكتاب الأصنام وديوان مهيار الديلمي وعيون الأخبار للدينوري ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وأشباهها

وهل يجوز ان نعود من مصر دون أن نزور رجال الأدب والصحافة فيها [1]

* * *

وحقٌ علينا ونحن الذين ما برحنا منذ عشرين سنة نعالج الشئون الزراعية والاقتصادية ان لا نعود الى دمشق قبل ان نزور المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في السنة الحاضرة في ارض الجمعية الزراعية الملكية في الجيزة وقبل ان نلقي نظرة على مدرسة الزراعة العليا في الجيزة وعلى مؤسسات وزارة الزراعة المهمة . ولقد يممت لبلوغ هذه الغاية معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاذا استقبالهُ لي يدل على وفرة ادبه وشدة عطفه واذا به ممن زاروا الشام في الأيام الخالية ومن النادر أن يزورها مصري كريم دون أن تترك في نفسه أثراً جميلاً

وتقدم الوزير المشار اليه الى السيد حلمي احد مفتشي الوزارة بان يكون دليلنا غير مكره فكان مثالاً للرجل الوديع من جهة وللمهندس الزراعي الخبير ببلاده من جهة ثانية . فاما المعرض الزراعي الصناعي فقد تجلت فيه جهود المصريين حكومة وشعباً في سبيل الانتاج الزراعي والصناعي فكان اجل صورة لذلك الشعب الشيخ الفتي والنائم المستيقظ فهنالك اجود مجموعة للأقطان في دار الجمعية الملكية الزراعية وهنالك مصنوعات مصلحة السجون من مفروشات ومناشف ومنسوجات حريرية وصابون وسجاد واحذية وكراسي ومماسح الخ كلها متقنة الصنع ومصنوعات المدارس الصناعية في انحاء القطر من نسج حريرية وآلات زراعية واثاث ورياش ومنتوجات المدارس الزراعية ومعروضات اقسام وزارة الزراعة كقسم الحشرات وقسم النباتات وقسم الاقطان وقسم البساتين وغيرها . وهنالك اجود محاصيل القطر الزراعية على انواعها من حبوب وفواكه وخضر ونباتات صناعية وهنالك ايضاً مصنوعات الشركات التي اسسها بنك مصر والغرف المختصة بمصلحة الصحة والاسعاف وهي جديرة بأن تسمى مدرسة لحفظ

(١) وهنا ذكر طائفة كبيرة من اعلام الفكر والادب والشعر والصحافة في مصر واشهر آثارهم ومميزاتهم الفكرية

الصحة. واذا اضفنا الى ذلك معروضات معامل الجلود والنسج والصناعات الصغيرة المختلفة تكون قد اوجزنا في كلتين ما احتجنا في زيارته الى اربعة ايام وما نحتاج في درسه الى شهر على الاقل وليس الخبر كالمعاينة

* * *

ومما لا شك فيه ان اخواننا المصريين لم ينحقوا الشاميين بالصناعات الوطنية الحديثة وليس لديهم اليوم امثال ما لدينا من معامل الدباغة والجوخ و« الكريب » وسائر النسج الحريرية و« التريكو » والجوارب وقمصان الكتان وسراويله وانواع الحلويات وعود الكبريت والسمنت وغيرها مما لا أثر فيه لرؤوس المال الاجنبية لكنهُ ليس ثمة ما يمنعهم من اللحاق بنا ومن تخطينا بمراحل . ولا شك ان السباق في هذا المضمار سيكون بنك مصر بعماله . ومن البديهي ان مصر كالشام لا يمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة لخلوها من الفحم الحجري والحديد لكن بوسعها ان تنسج كل ما يلزم لكلها من الالبسة القديمة والحديثة وان تصنع كل ما قلنا إنهُ يصنع اليوم في الشام فتستغني عن دفع ملايين من الجنيهات سنويًّا الى البلاد الاجنبية

واما مدرسة الجيزة الزراعية العليا فهي لا تقل بمخابرها ومعداتها ووسائل التعليم فيها عما خبرناه في المدارس الأوربية الشبيهة بها . ومن بواعث السرور ان جميع الدروس تلقى فيها باللغة العربية دون غيرها . وكذا في مدارس الزراعة المتوسطة الواقعة في مشتهر والمنيا ودمنهور وفي مدارس التجهيز كافة . وقد اخذت العربية تحل محل الانكليزية والفرنسية في سائر المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرها

ويعد هذه صورة جد صغيرة لما شاهدتهُ في رحلتي القصيرة الى القاهرة . ونحن اذا رُحنا نلخصها في بضعة اسطر حصلنا على النتيجة الآتية وهي ان تلك المدينة الرائعة اصبحت اليوم رأس مدن الشرق العربي بعمرانها وبروعة آثارها الشرقية وان فيها نهضة علمية تتجلى في جماعة المجمع المصري للثقافة العلمية وفي عديد من الاخصائيين بمختلف العلوم ونهضة ادبية واسعة النطاق تسطع في جماعة دار الكتب المصرية ورجال لجنة التأليف والترجمة ونوابغ الشعراء وفحول الأدباء من اساتذة ومؤلفين ؛ ونهضة وطنية وسياسية لم تتعرض لها ولكنكم تلمسونها كل يوم في ما تقرأونهُ في الصحف المصرية، ونهضة صحافية كبيرة لا عهد لمصر بمثلها من قبل وهي ثمرة مجهود عدد لا يستهان بهِ من حملة الأقلام المصريين والشاميين ، ونهضة مالية واقتصادية لها في حياة القطر المصري الشأن الأكبر ومبعثها بنك مصر خاصة. فاذا اضفتم الى ذلك ان القاهرة عاصمة بلاد غنية يبلغ عدد سكانها ١٥ مليونًا من الناطقين بالضاد ادركتم الأسباب التي تجعل مصر زعيمة الشرق العربي بلا منازع

مثوى القديس بطرس في جبل سلبيوس بمدينة انطاكية

منظر عام لمدينة انطاكية

— ٢ —

انطاكية وآثارها الفخمة

قال بعد تمهيد : — وبعد ان اقمنا في الاسكندرونة زهاء خمس ساعات ، غادرناها قاصدين الى انطاكية في ركب ضخم من الاهل والاصدقاء جاءوا لاستقبالنا ، وقد بهرنا وسحر اعيننا ، وملك علينا البابنا ، ما رأيناه في طريقنا من استبحار العمران في تلك الاقطار ، فقد كنا نمر بالقرى قائمة في الاودية ورؤوس الجبال ، وكنا نتعثر تعثراً بالجداول والانهار ، تحفها البساتين وصنوف الزرع والاشجار حتى لظننا انهُ ليس في هذه البلاد صحراء مقفرة ، او ارض غفرة ، وتذكرنا ابيات الشاعر الاندلسي اذ يقول : —

يا اهل اندلس لله دركمُ ماء وظل وانهار واشجار
ما جنة الخلد الا في دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت اختار
لاتخشوا بعدها ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وما لبثنا بعد ساعة وكسر ان انحدرنا في سهل فسيح مشرفين من الروابي الخضرة في ابعد حدود البصر على بحيرة انطاكية الزرقاء المتصاغرة ، كالقطرة المرتجفة المتحيرة في راحة الطفل الغرير والعشب الاخضر ، المزهر يحف بساحلها الصلد ، تحجبها قليلاً عنا سنديانات مائلة الاعناق ذابلتها ، حتى اذا المعنا على ذلك السهل الفسيح المخضر لمحنا مدينة انطاكية رابضة في سفح جبل «سلبيوس» متوهجة تحت قرص الشمس ، واذ ذاك طار لبي في عالم التفكير ، ومسارح الخاطر ، وها انذا ابسط بايجاز تاريخ هذه المدينة الفاتنة العجيبة التي كأنها قطعة انتزعت من الفردوس ، وسربت من السماء الى الارض وقرت عيناً بهذا المكان فاستقرت ، وكانت لاهليه روحاً وريحاناً وجنة نعيم

كانت انطاكية عاصمة الرومان في الشرق بعد القسطنطينية ، وقد ظلت اكثر ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها به «بليبوس» وهو : ملكة الشرق : وكذلك ظلت عاصمة السلوقيين من القرن الرابع الى الاول قبل المسيح

ولعل أروع ما في آثارها القديمة الجسر الروماني الممتد فوق نهر العاصي ، وهذا الجسر من اكبر الجسور الرومانية الباقية حتى الآن في سوريا ، وقد جرفت السيول جسوراً حديثة

بناها المهندسون الفرنسيون في كثير من انحاء سوريا ولبنان وهذا الجسر القديم ثابت على مقاومة العناصر الطبيعية هذه القرون العوار ، ولا يسع كل منصف الا ان يثني الثناء الطيب على المهندسين الرومانيين ، ويطأطئ رأسهُ امام اشباههم اجلالاً لقدرهم واعتراقاً بتفوقهم في صناعتهم . وتحيط بالمدينة بقايا سور قديم يرجع تاريخهُ الى اواسط القرن السادس للميلاد فقد اشار اليهِ المؤرخون وقالوا ان الرومان احتموا باسوار المدينة عندما هاجمها جيش كسرى ملك فارس وكانت نتيجة ذلك دخول الجيوش الفارسية مدينة انطاكية بعد حصار دام ثمانية ايام ، ثم تصالحت الدولتان واتفقتا على ان يؤدي القيصر الى ملك فارس مبلغاً معيناً من المال . وللمدينة ابواب اثرية قديمة لا يزال بعضها قائماً الى الآن . منها باب يدعى باب مسلم ويرجح ان تسميتهُ بهذا الاسم نسبة الى مسلم بن عبدالله جد عبدالله بن حبيب النعمان بن مسلم الانطاكي وكان قد جاءها في عهد ابي عبيدة بن الجراح الذي فتحها في ايام الخليفة عمر بن الخطاب فتتل على باب من ابوابها فهو يعرف لذلك بباب مسلم . وفي شرق المدينة باب آخر يدعى باب بولس ويروى ان بولس الرسول دخل انطاكية من هذا الباب فدعي باسمهِ واستشهد المؤرخون على ذلك بما ورد في اعمال الرسل (ص ١ : ٢٢ — ٢٦) وعلى بعد ١٥٠ متراً من باب بولس باب آخر يدعى باب بطرس وفي التقاليد ان بطرس الرسول سيم اسقفاً على انطاكية وكان اول اسقف لكنيستها وذلك سنة ٣٨ وفي رواية اخرى سنة ٤٤ بعد المسيح فاقام فيها مدة سبع سنوات ثم عين « إفوريوس » خليفة وسافر الى رومية

***

ومما اتفق عليهِ المؤرخون ان الامبراطور يوليانوس مد اهالي انطاكية بالمال على اثر زلازل كثيرة حدثت فيها وهدمت معظم ابنيتها ، فبنوا حمامات جميلة وقصوراً وكنيستين كبيرتين احداهما للعذراء والاخرى للقديس ميخائيل وحولوا مجرى النهر بحيث صار اوسع وبلطوا اسواق المدينة تبليطاً حسناً وجعلوا ما كان معوجاً على استقامة واحدة لتسهيل المرور فيها وجروا المياه الى المدينة بالقنوات وغيرها . وفي شرق المدينة وعلى رابية من روابيها هيكل قديم الصنع عالي البنيان تجري المياه المعدنية الحارة من بين جدرانهِ فيقصده السكان للاستحمام والاستشفاء من شتى الامراض وقد أقام الآباء الكبوشيون هناك كنيسة باسم القديسين بطرس وبولس . وفي هذا الهيكل اعمدة جميلة وتماثيل متقنة . ومن الغريب ان ابوابهُ تظل مقفلة وقد تسلط الآباء الكبوشيون عليهِ فلا يسمحون بزيارتهِ في كل الاوقات . وبعض الهياكل القديمة لا ابواب لها يدخلها من يشاء ويقال ان القديس ديمتريوس دفن في احدها ولذلك ترى المسيحيين الارثوذكس يزورون هذا الهيكل ويأخذون معهم طعامهم وشرابهم فيأكلون ويشربون وينحرون الذبائح ويتقربون النذور

بقايا هيكل الملون في « دفنه » بجوار انطاكية

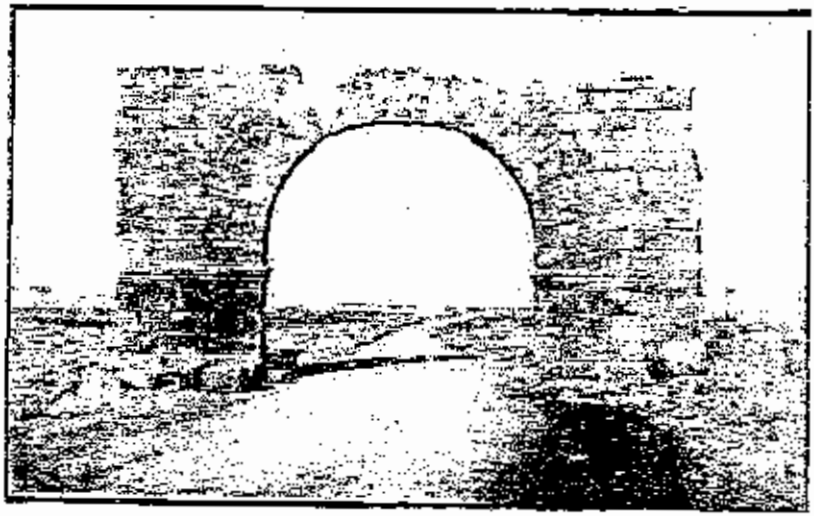

باب أثري يسمى « باب الهواء » وهو من الآثار الرومانية

واذا هبط السائح وادي العاصي الخصيب حول انطاكية رأى سلسلة غير منتظمة من الآكام الكلسية (الجيرية) ومتوسط علو هذه الآكام ١٥٠٠ قدم ومنها ما علوه ٣٠٠٠ قدم الى ٣٥٠٠ فوق سطح البحر . وهي آكام خضراء نضرة . واذا صعد السائح اليها رأى في كل منعطف منها أثر يد الانسان من طرق مرصوفة وجدران تفصل الحقول بعضها عن بعض وأرصفة هائلة الكبر . ثم يشاهد خرائب مدن وضياع صغيرة مهجورة فيها ابنية قديمة مبنية من حجارة كلسية بديعة النحت . واذا صعد الى مرتفع هناك رأى حواليه خرائب مثل هذه الخرائب ممتدة في كل جهة، واذا كان بعيداً عنها لا يكاد يصدق انها خرائب مهجورة . وبعض هذه المباني لا يزال قائماً ولكن سقوفه منزوعة عنها على مرّ الزمن . وقد يسير المرء اميالاً كثيرة في تلك البقاع ولا يرى فيها انساناً ولا خضرة ما سوى بعض شجر العفص والبطم هنا وهناك ولا ارضاً ترابية صالحة للزرع الا في اماكن بين الصخور حيث لم تستطع السيول جرف التراب ايام الامطار . اما البناء في هذه الخرائب فيمثل كل طراز معروف عند الامم العريقة في الحضارة ، من ذلك ابنية تدل الدلائل على انها قديمة وان لم يكن عليها كتابة وهي على شكل كثير الاضلاع ولها افاريز غليظة حول سطوحها وابوابها . ومنها ابنية بنيت في القرن الاول والثاني للمسيح بينها هيا كل بديعة البناء ومعظمها خرائب لان الناس جعلوا يسطون عليها لاخذ حجارة البناء منها . واذا اجتاز السائح هذه التلال شرقاً انحدر الى اودية خصيبة طمست آثار ما كان فيها من المباني لطول تداول الناس حجارتها في العصور الخالية ، وفيها بعض الخرائب مثل جدران قائمة أو ابراج أو قناطر أو اعمدة . والباحث فيها عن كتب يجد انها كانت اكثر ازدحاماً بالسكان في غير الازمان من المناطق الجبلية التي مر الكلام عليها . ويستدل من أقدم الكتابات التي وجدت فيها ان العمران بلغ فيها شأواً رفيعاً في اوائل التاريخ المسيحي ، كذلك تدل الآثار والتاريخ دلالة قاطعة على ان ذلك العمران بدأ هناك قبل التاريخ المسيحي بنحو مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة على القليل ولكن هناك آثار أخرى يؤخذ منها ان مدنية تلك البقعة اقدم عهداً ولو لم نعرف الا القليل عن تلك المدنية القديمة

***

وفي المدينة تماثيل كثيرة عثر عليها عند البحث والتنقيب منها تمثال الامبراطورة افدوكيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس . وهذا التمثال من اغرب التماثيل وقد روى المؤرخون عنها قصصاً كثيرة تدل على السبب الذي حمل الانطاكيين على نصبه للامبراطورة افدوكيا وأشهرها ان الامبراطورة كانت مولعة بالشعر وقد زارت انطاكية وكان ابوها من معلمي المعاني والبيان فلما وصلت الى المدينة راقتها مناظرها الطبيعية الجميلة وتذكرت ما فيها فجلست على سرير من

الذهب مرصع بالجواهر والتفت خطاباً موضوعهُ مديح انطاكية واشارت في اختتامه الى ان اصل هذه المدينة يوناني لان الذي اختطها هو الجنرال سلوقس احد قواد الاسكندر وانها هي يونانية للاصل ولذلك تحبها كل لحمة . ثم انشدت شعراً من الياذة هوميروس تتغنى الناطقون كثيراً ودعوا لها بالنصر ونصبوا لها تمثالين فغمرت المدينة بعطاياها . وفي ظاهر المدينة كثير من القبور الرخامية الجميلة الصنع والاتقان بعضها مربع وبعضها مستطيل

وعلى مسافة قريبة من المدينة غابة مجاورة لها كانت تدعى قديماً « دفنة » ومعناها «غار» كان فيها هيكل عظيم لابلون زالت معالمه واندرست آثاره الا القليل منها وقد اشتهرت دفنة بمياهها الغزيرة وشلالاتها التي شهد كثيرون من السياح ان لا نظير لها حتى في سويسرا . والمياه هنالك تتحدر من قمم الجبال والآكام مارة بين الصخور الذهرية وعند بلوغها سفوح الجبال تجري على الحصباء كأنها قطع بلورية ، وحولها اشجار الصنوبر والتفاح، وغابات السرو والشربين ، وكروم التين والعنب والزيتون ، وحقول التوت والكستناء ، والآكام والهضاب ، والجبال الشاهقة مغطاة كلها بالانجم الزهرية ، ونهر العاصي يتمعج بينها كالافعوان بل كسيف يسل على نجاد اخضر

***

والخلاصة ان آثار انطاكية من اعظم الآثار الدالة على مدنية سوريا القديمة وقد امتاز سكانها القدماء بميلهم الى اللهو والطرب وكانوا كلفين بالعاب التياترو والميادين كغيرهم من السوريين فكانت اللاذقية ترسل الى تلك الالعاب سائقي المركبات ، وصور وبيروت ممثلي الروايات ، وقيصرية لاعبي الخيل ، وبعلبك المغنين ، وغزة ابطالاً يقاتلون الوحوش في الميادين العمومية ، وعسقلان المصارعين ، وقسطابلا لاعبي البهلوان ، وكان اهلها على حبهم الشديد للملاهي يميلون الى العلم الالهي وعلم الهيئة ، واستمرت ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها به بلينوس وهو : ملكة الشرق اذ كانت محوراً لتجارة اسيا الغربية وملجأ لفنون اليونانيين وعلومهم ، وكان اليونان يسمونها انطاكية الجميلة وكانت فيها ابنية عمومية شائقة منها قصر الملوك الذي لا تزال آثاره ظاهرة وهيكل المشتري الذي لاتزال آثاره بادية في «دفنه» والتياترو والامفيتياتر ودار القياصرة وعدة حمامات واقنية للمياه وما الى ذلك من الابنية العامة الكبيرة التي تدل على عظمة سكان سوريا القدماء وما بلغوه من العز ورفعة الشأن في سالف العصور